جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

التشاؤم
في رسائل ابن الدَّبَّاغ
(دراسة فنية)

الدكتور
فيصل زيدان مزيد السلمي
أستاذ مساعد ـ قسم المواد العامة ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ
جامعة الملك عبد العزيز بجدة ـ المملكة العربية السعودية

العدد الخامس والعشرون
للعام ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢١م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

التشاؤم في رسائل ابن الدَّبَّاغ (دراسة فنية)

فيصل زيدان مزيد السلمي

قسم المواد العامة ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ جامعة الملك عبد العزيز بجدة ـ المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : yshgd.fjjf@yahoo.com

الملخص :

التشاؤم أحد المشاعر الإنسانية التي قد تصبغ حياة فرد أو أدب أديب، وقد هَدَفَ هذا البحث إلى الكشف عن هذه النزعة في رسائل الأديب الأندلسي ابن الدباغ، متخذًا من المنهج الفني الجامع بين التذوق الذاتي والحكم الموضوعي منهجًا للبحث.

وقد انقسم البحث مبحثين، الأول: التشاؤم وشخصية ابن الدباغ: ذكرت فيه ترجمة موجزة لابن الدباغ، وشخصيته الأدبية. والثاني: تجليات التشاؤم في رسائل ابن الدباغ: بدأت بتعريف التشاؤم في اللغة وعلم النفس والفلسفة، وعرجت على فن الرسائل الإخوانية. ثم ذكرت تجلي التشاؤم من خلال الموضوعات التي طرقها ابن الدباغ، ثم الفن في سياق التشاؤم عند ابن الدباغ، من جهة البناء الفني، البواعث والأفكار والمعاني، والأسلوب ثم من جهة الألفاظ وكذا الصور.

وتجلت نتائج البحث في استعمال ابن الدباغ للقيم الجمالية النثرية في عصره، وظهور بواعث التشاؤم والقلق والاضطراب في رسائله، ومقدرته التعبيرية عن المعاني وقدرته في تشكيل الصور والألفاظ.

الكلمات المفتاحية : التشاؤم، رسائل، ابن الدباغ .

Pessimism in the letters of Ibn al-Dabbagh (technical study)

Faisal Zidan more peaceful
General Subject Department - College of Arts and Human Sciences - King Abdul Aziz University in Jeddah - Kingdom of Saudi Arabia .
Email: yshgd.fjjf@yahoo.com

Abstract

Pessimism is one of the human feelings that may color the life of an individual or a literary person. This research aims to reveal this tendency in the letters of the Andalusian writer Ibn al-Dabbagh, taking the artistic method that combines self-appreciation and objective judgment as a method of research.

The research was divided into two topics, the first: The pessimism and the personality of Ibn al-Dabbagh: I mentioned a brief translation of Ibn al-Dabbagh and his literary personality. The second: the manifestations of pessimism in Ibn al-Dabbagh's letters: I began with defining pessimism in language, psychology, and philosophy, and turned to the art of the Brotherhood's messages. Then I mentioned the manifestation of pessimism through the topics that Ibn al-Dabbagh discussed, then art in the context of Ibn al-Dabbagh's pessimism, from the point of view of artistic construction, motives, ideas, meanings, style, and then in terms of words and images.

The results of the research were evident in Ibn al-Dabbagh's use of prose aesthetic values in his time, the emergence of pessimism, anxiety, and turmoil in his messages, his expressive ability to express meanings and his ability to form images and expressions.

Key words: Pessimism, letters, Ibn al-Dabbagh .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في الأدب تتجلى النزعات والمشاعر الإنسانية، فالأديب المبدع هو الأقدر بما يمتلك من ملكات تعبيرية وقدرات على وصف المشاعر وعلى رصدها، وجعلها بادية من خلال الكلمات.

والتشاؤم شعور إنساني منقبض، يجعل صاحبه ذا نظرة قاتمة أو شديدة الرمادية للحياة، ومهما حاول الأديب فهي تغلبه وتبدو في أدبه، لكنها تحتاج أن نستجليها، ونوضحها، وابن الدباغ أبو المطرّف عبد الرحمن بن فاخر أديب أندلسي وزيرٌ وكاتبٌ، له رسائل روى قدرا منها ابن بسام في الذخيرة، وسوف أقف مع هذه الرسائل مستجليا مظاهر التشاؤم فيها.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن أثر التشاؤم نزعةً إنسانيةً في رسائل ابن الدباغ وتجلياته.

منهج البحث:

يتَّبع البحث المنهج الفني، و"هذا المنهج يعد من أكثر المناهج الأدبية صلة بالأدب؛ لأنه يرتبط بالنص، وحكمه عليه يجمع بين الجانب الذاتي متمثلا في الذوق الأدبي للناقد والجانب الموضوعي متمثلا في الأصول والقواعد الفنية والموضوعية حتى لا يصبح النقد مجرد آراء تطرح بدون حجة أو برهان فضلا عن التزامه بالمرونة التي تمكنه من مواكبة التطور والتجديد في الشكل الفني للعمل الأدبي"(١).

---

(١) التذوق الأدبي ص ٢١٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

خطة البحث: أتناول في هذا البحث المبحثين التاليين:

المبحث الأول: التشاؤم وشخصية ابن الدباغ ، ويتجلى ذلك في:

- صفاته الشخصية والفردية وأثر البيئة المحيطة في تشاؤمه.

المبحث الثاني: تجليات التشاؤم في رسائل ابن الدباغ، وذلك:

- تعريف التشاؤم في اللغة وعلم النفس والفلسفة، مع التعريج على فن الرسائل في الأندلس.
- من خلال الموضوعات المطروقة.
- الفن في سياق التشاؤم عند ابن الدباغ.

خاتمة: تحتوي على أهم النتائج . ثم فهرس المصادر.

الدراسات السابقة:

لم أهتدِ إلى دراسات مستقلة تتناول ابن الدباغ، لكن يوجد دراسة فنية لأدبه وخصائصه الفنية ضمن كتاب (أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري) من ص ٣٧٩ إلى ٤٠٢ فايز عبد النبي فلاح القيسي.

أما عن التشاؤم، فهناك بعض الأبحاث فيه:

- التشاؤم في شعر أبي العلاء المعري وعبد الرحمن شكري، هادي نظرى منظم، خاطرة أحمدي، مجلة إضاءات نقدية ، العدد ١٢ كانون الأول ٢٠١٣م.
- التشاؤم واليأس في قصائد أبي العتاهية، أ.م.د. كوران صلاح الدين شكر، مجلة الأستاذ العدد ٢٠٨ ، المجلد الأول ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.

المبحث الأول

التشاؤم وشخصية ابن الدباغ[١]:

الحديث عن ابن الدباغ يكشف شيئا عن هذه الشخصية ، من عدة زوايا، أولها: قلقه واضطرابه، ثانيها: علاقته بالآخرين، و ثالثها: بلاغته وبيانه.

ابن الدباغ "هو أبو المطرِّف عبد الرحمن بن فاخر من سرقسطة، كان كاتبا عند صاحبها المقتدر بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ) فوقعت بينهما وحشة، فهرب ابن الدباغ ولَحِقَ بالمعتمد بن عبَّاد في إشبيلية (٤٦١-٤٨٤هـ) فنال عنده حظوة، وسَفَرَ بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس، وكان لابن الدباغ حساد وأعداء، كما كان هو أيضا ضيق الخلق كثير التضجر من الناس، ووقعت بينه وبين ابن عمار (قتله المعتمد سنة ٤٧٧هـ) عداوة فانتقل إلى المتوكل بن الأفطس[٢] في ٤٧٣هـ أو بعد ذلك بقليل... وكان أبوعبد الله محمد بن أيمن وزيرا لدى المتوكل أو مستوليا على الوزارة، فخاف من منافسة ابن الدباغ، فنشأت بينهما عداوة شديدة ارتحل ابن الدباغ بعدها إلى بلده سرقسطة، وبعد قليل قتل ابن الدباغ في بعض بساتين سرقسطة"[٣].

---

(١) ينظر ترجمة ابن الدباغ في قلائد العقيان ٣١٤/١ والذخيرة القسم الثالث ٢٥١/١، وخريدة القصر شعراء المغرب والأندلس ٣٨٧/٣ والمغرب ٤٤٠/٢ وتاريخ الأدب العربي ٦٥٩/٤ فروخ، وتاريخ الأدب العربي، الأندلس ص ٤٣٧ ضيف. وقد نقل صاحب المغرب عن الذخيرة، ونقل في خريدة القصر عن قلائد العقيان، ويعد القلائد والذخيرة هما الأساس في الترجمة.

(٢) جاء في الذخيره أن المعتمد نفاه. الذخيرة القسم الثالث ٢٥٢/١.

(٣) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ٦٥٩/٤-٦٦٠ بتصرف، وينظر تاريخ الأدب العربي، الأندلس ص ٤٣٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذا ملخص ما ورد في ترجمته عن حياته وتنقلاته، وفسر د. شوقي ضيف هذا التنقل من مكان لآخر بقوله: "ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قُلْ سيء الظنون، فنبا به مقامه عند المقتدر بن هود، ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جبلت عليه نفسه"(١).

فبالإضافة إلى العداوة المضمرة له، والتحاسد، والتنافس، كان هو قلقا مضطربا لا يطيب له الاستقرار، وربما بداخله هواجس من خوف وعدم ثقة، وقد يُسْتَنْتَجُ ذلك بسبب خبرته بالأيام وصروف الزمان، فقد قال ابن خاقان عنه: "إلا أن الأيام تعدَّت على آماله، وأغرت صروفها بكماله، فلم تلحْ أمانيه حتى غربت، ولا اتفقت له حال حتى اضطربت"(٢).

وعلى مستوى الفن الأدبي، فقد كان ذا بيان وبلاغة، قال عنه الفتح ابن خاقان: "أحد أعلام الوزارة المتَسَمِّينَ بأزيائها المرتسمين في زمام عليائها المشتهرين بالبلاغة المقتصرين على حسن التناول في كلِّ إراغة"(٣).

وأما أدب ابن الدباغ، فقد "كان ابن الدباغ أديبا شاعرا وكاتبا، وكان النثر أغلب عليه، ومعظم رسائله إخوانيات كثيرة السجع والصناعة، وتكاد تكون كلها في الشكوى من الدهر ومن السعايات ... أما شعره فسهلٌ عذب، ولكن معانيه عادية، والقليل المروي من شعره في الغزل والنسيب

(١) تاريخ الأدب العربي، الأندلس ص ٤٣٧. ووصفه في القلائد بضيق الصدر. ينظر ٣١٥/١.
(٢) قلائد العقيان ٣١٤/١، وينظر خريدة القصر شعراء المغرب والأندلس ٣٨٧/٣.
(٣) قلائد العقيان ٣١٤/١، وينظر خريدة القصر شعراء المغرب والأندلس ٣٨٧/٣. "(أراغه) خادعه وأراده وَطَلَبه، وَيُقَال: أراغه على أَمر وَعَن أَمر راوده وَطَلَبه مِنْهُ" المعجم الوسيط ص ٣٨٣.

والمديح"[١]، ورسائل ابن الدباغ "جميعها غُرر ودُرر وأكثرها في ذم الزمـــان ومعاصريه، وتعذر آماله فيه"[٢].

فابن الدباغ شهد له العلماء بالبراعة في الأدب وخاصة النثـــر، ومـــا روي له من الرسائل موجود في قلائد العقيان لابن خاقان، وفي الذخيرة لابن بسام.

ومن نافلة القول أن أذكر أن الدكتور عمر فروخ قدَّرَ سنة وفـــاة ابـــن الدباغ بقوله: "إن هذه الأحداث المتلاحقة تدل على أن مقتل ابن الدباغ كـــان في حدود سنة ٤٨٠هـــ (١٠٨٧م)"[٣].

(١) تاريخ الأدب العربي ٤/٦٦٠ فروخ.
(٢) تاريخ الأدب العربي، الأندلس ص ٤٣٧.
(٣) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ٤/٦٦٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الثاني

تجليات التشاؤم في رسائل ابن الدباغ:

للتعرف على التشاؤم عند ابن الدباغ لابد أن نتعرف على معنى التشاؤم أولا، لغة، وكذا في علم النفس؛ كي نقدر على اختبار أثره في رسائل هذا الأديب.

التشاؤم لغة: جاء في لسان العرب: الشُّؤْمُ: خلاف اليُمْنِ، وقد شُئِمَ عليهم، وشَؤُمَ وشَأَمَهم، وقد تشاءم به. ويقال: تشاءم الرجل إذا أخذ نحو شماله(١). والشؤم الشر(٢).

"شأَمَ قومَه/ شأم على قومه: جرَّ عليهم الشؤم، أي: النحس، ((أشأم من غراب)) رجل مشئوم: أينما حلَّ لا يتفاءل الناس بقدومه"(٣).

أما في علم النفس فالتشاؤم (Pessimism) يحدث "عندما يقوم الفرد بتركيز انتباهه وحصر اهتمامه على الاحتمالات السلبية للأحداث القادمة، وتخيل الجانب السلبي في النص أو السيناريو كما أن هذا التشاؤم أو التوقع السلبي للأحداث قد يحرك دوافع الأفراد أو أهدافهم وجهودهم لكي يمنعوا وقوعها، ويتسبب ذلك في التهيؤ والتأهب لمواجهة الأحداث السيئة المتوقعة"(٤).

---

(١) ينظر لسان العرب ٣١٤/١٢ (ش أ م) بتصرف، وتاج العروس ٤٤٤/٣٢.
(٢) ينظر المعجم الوسيط ص ٤٦٩.
(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة ١١٥٣/٢.
(٤) التفاؤل والتشاؤم ص ١٥.

وعرَّفه د. بدر الأنصاري بقوله: "التشاؤم توقع سلبي للأحداث القادمة، يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل، ويستبعد ما خلا ذلك إلى حد بعيد"(١).

وللتشاؤم وظائف يقوم بها، فـ"كما يرى كل من (شاورز، روبين) ... يقوم بالوظائف الآتية:

١-يهيئ الفرد أو يعده لمواجهة الأحداث السيئة، ومن هنا يعد ذلك استراتيجية أو هدفا يسعى إلى حماية الذات.

٢-يزيد مجهود الفرد لكي يعزز أو يدعم أداءه الجيد حتى يتفادى تلك الأحداث.

ومن ثم سمي هذا الجانب بالتشاؤم الدفاعي أو التهيؤ أو التأهب للتشاؤم"(٢).

وفي الحقيقة التشاؤم ليس قاتما دائما بل إن علماء النفس يتحدثون عن بعض الإيجابيات للتشاؤم؛ "لذا فإن هذا التشاؤم عبارة عن إدراك يحمي الذات ومن ثم يدافع عنها بطريقتين:

-أنه يعمل كمنطقة عازلة لحماية الذات من الأذى والصدمات إذا حقق الفرد نتائج سيئة.

-أنه حافز نحو التكيف مع نتائج الأحداث الخارجية.

---

(١) السابق ص ١٦.

(٢) التفاؤل والتشاؤم ص ١٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

نتيجة لذلك نجد أن التشاؤميين الدفاعيين (defensive pessimists) يميلون إلى الأداء الجيد مثل أداء المتفائليين الأكاديميين (academic optimists) رغم ذلك فإن أداء المتشائمين الدفاعيين لا يستمر بنفس النشاط والتكيف على المدى البعيد"(١).

أما في الفلسفة فقد تحولت التشاؤمية إلى مذهب فلسفي، يرى واحدا من الأطروحات التالية أو بعضها أو كلها:

"أ-مذهب يقول: إن الشر يتغلب على الخير بحيث يكون العدم أفضل من الوجود.

ب-مذهب يرى أن الألم في الحياة يذهب بالملذة أو حتى إنه وحده الحقيقة إذ إن الملذة ليست سوى التوقف الآني للألم(٢).

ج-مذهب يذهب إلى أن الطبيعة لا تبالي بالخير ولا بالشر الأخلاقي، ولا تكترث لسعادة المخلوقات أو تعاستهم.

د-استعداد ذهني لرؤية الجانب الأسوأ من الأمور. حالة ذهنية يتوقع (إما عموما، وإما في حالة خاصة) أن تجري الأمور بما لا يُشْتَهَى"(٣).

فن الرسائل، وطبيعته في الأندلس:

الخطابة والكتابة النثرية هما الفرعان الأكبر في النثر، وفن الرسائل من الفنون النثرية الكتابية، إن النثر في الأندلس بوجه عام سار على ما

(١) مقال: سيكلوجية التفاؤل والتشاؤم، فيونا بارشار، موقع كلية التربية جامعة كربلاء.
https://cutt.us/bwp89

(٢) يمكن القول: إن تلك السمة مما يلوح في رسائل ابن الدباغ.

(٣) موسوعة لالاند الفلسفية ص ٩٦٨، وينظر الموسوعة الفلسفة العربية ص ٢٥٥.

سار عليه عند أهل المشرق، ويشير د. شوقي ضيف إلى "أن الأندلسيين لم يستحدثوا لأنفسهم مذهبا جديدا في تاريخ النثر العربي يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة التي كونها هذا النثر في المشرق، فقد وقفوا عند المحاكاة، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة التي رأيناها في المشرق، فتارة يصنع لنفسه نموذجا من ذوق أهل الصنعة، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أهل التصنيع، وتارة ثالثة تراه يعدل إلى ذوق أصحاب التصنُّع. وقد فتنت كثرتهم بالسجع، ولكنها لم تفتن بالبديع الذي كان يصحبه عند أصحاب التصنيع بل فتنت –إلى حد ما– بالغريب الذي رأيناه عند أصحاب التصنيع، كما فتنوا بالأمثال"(١).

وهذا ما قاله د. أحمد ضيف: "وعلى الرغم من رقي النثر في الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته العامة، وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية، غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة كالقصص والحكايات الخيالية والمناظرات وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر"(٢). وتنوع المواضيع وابتكارها ابن البيئة المحيطة للأديب، بل هو نبت عقلية المكان والزمان.

والرسالة الأدبية فن له قواعد وبنية فنية محددة في نموذجها النموذجي، وتُعَرَّفُ الرسالة بأنها "لفظ رسالة في الأدب الأندلسي إنما كان يقصد به الرسالة النثرية الفنية أي: القطعة النثرية التي يدبجها الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر"(٣).

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٢١.
(٢) بلاغة العرب في الأندلس ص ٣٢-٣٣.
(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٨٣. وينظر التذوق الأدبي ص ٦١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وهناك قسمان عامان للرسائل[١]: الرسائل الديوانية: وهي الرسائل الرسمية التي تخرج باسم الدولة، وهناك الرسائل الإخوانية و"هي تلك التي تصور عواطف الكتاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة ...وموضوعات هذا اللون كثيرة ومتعددة جمعها مؤلف صبح الأعشى في سبعة عشر نوعا، منها: التهاني والتعازي والعتاب والشكوى والاعتذار والاستمناح والشكر وما إلى ذلك من الموضوعات، وهي على تعددها تندرج في مجموعتين، أولاهما: الرسائل الإخوانية شبه الرسمية، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب، أي أنها تلك الرسائل التي يتبادلها الخليفة أو الأمير أو الوزير مع من دونه في المنزلة الاجتماعية في أمور خاصة. وثانيتها: الرسائل الإخوانية الذاتية، وهي التي تتناول ما يدور بين الأصدقاء من عتاب وشوق وعزاء وما إلى ذلك من العواطف"[٢].

إن الرسالة الديوانية رسمية وظيفية تكتب بإحكام لتؤدي غرضا رسميا، أما الرسالة الإخوانية فهي ذاتية تنطلق من ذاتية المبدع وعواطفه وأفكاره، ولذا فهي مجال تعبير واسع، وإبداع وتصرف من قبل الكاتب.

وقد تمتعت الرسائل الإخوانية بسمات فنية، يمكن إجمالها فيما يلي:

-لم يلتزم الأندلسيون بما التزم به المشارقة من الاهتمام بمطالع الرسائل وخواتيمها، وقد يدخل الكاتب في موضع رسالته مباشرة، وقد يختمها بالدعاء للمرسل إليه.

---

(١) ينظر التذوق الأدبي ص ٦٢-٦٣.

(٢) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ١٠٠، وينظر صبح الأعشى ٩/٥-٢٢٥. وينظر في الرسائل لإخوانية النثر الفني في القرن الرابع ١٦٣/١.

-كما أكثر الأندلسيون من استخدام الجمل الدعائية والاعتراضية في رسائلهم.

-وقد يضمنون رسائلهم أبياتا شعرية حسب ما يقتضيه المقام، أو ينظم بعض الأبيات ويضمنها في رسالته، وقد ينثرون بعض الشعر في الرسائل.

- كما حرصوا على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين رسائلهم الأخبار والحكم والأمثال وبعض مصلحات اللغة والنحو.

-ومن حيث الإيجاز والإطناب فلم تكن الرسائل على مستوى واحد، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة، وشخصية الكاتب وعاطفته.

-وتميزت ألفاظ الرسائل بالسهولة والبعد عن التعقيد والغرابة، والجزالة والقوة، هذا هو الأعم الغالب، ومع ذلك كان السجع شائعا في رسائلهم، مع اختلافهم في توظيفه وقدرتهم على ذلك. كما انتشر الازدواج في رسائلهم أيضا، وعنوا أيضا بالجناس وإن كان أقل من عنايتهم بالسجع(١).

(١) ينظر في الخصائص الفنية أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٣١٥-٣٦٠. وينظر في الخصائص الفنية للنثر الأندلسي النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله ٦٣٢/٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التشاؤم في رسائل ابن الدباغ من خلال الموضوعات المطروقة:

شعور التشاؤم لا يتنامى ويتصف به الإنسان إلا بعد أن يستقر في نفسه أن الأمور لن تجري بما تشتهي نفسه، وتأتي الشواهد والأدلة لتدعم ذلك، ولعل الشكوى قرينة للتشاؤم، ومن مطالعة رسائل ابن الدباغ التي وردت في قلائد العقيان والذخيرة، أستطيع أن أستنبط سياقات دالة على التشاؤم في أدب ابن الدباغ، ويتجلى ذلك في:

شكوى الأيام وفعلها به:

يشتكي ابن الدباغ من الأيام، وما تفعله به ، فيقول: "كتابي، وأنا كما تدريه غرض للأيام ترميه، ولكن غير شاك من آلامها؛ لأن قلبي في أغشية من سهامها، فالنصل على مثله يقع[(١)]، والتألم بهذه الحال له قد ارتفع، كذلك التقريع إذا تتابع هان، والخطب إذا أفرط في الشدة لان، والحوادث تنعكس إلى الأضداد إذا تناهت في الاشتداد وتزايدت على الآماد"[(٢)]. وهذا وصف بديع لما يلاقيه ابن الدباغ من الحياة للدرجة التي وصل فيها إلى منتهى الألم الذي معه فقد الإحساس، ولا أشد من الألم والشكوى على نفس الإنسان عموما والأديب خاصة.

ومن الشكوى من الدنيا واليأس منها قول ابن الدباغ: " ما أظن أن لدجى حالي انبلاجا، ولا لكربة نفسي انفراجا، ولا إخال غمرات الهم تنجلي،

---

(١) وهذا نثر لقول المتنبي في ديوانه ٣/١٤٠:

رَماني الدَهرُ بِالأَرزاءِ حَتّى ... فُؤادي في غِشاءٍ مِن نِبالِ
فَصِرتُ إِذا أَصابَتني سِهامٌ ... تَكَسَّرَتِ النِصالُ عَلى النِصالِ

(٢) قلائد العقيان ١/٣١٥. وكرر المعنى ذاته في رسالة أخرى ، ينظر الذخيرة القسم الثالث ١/٢٦٢.

ولا مدد النحوس تنقضي. ومن كانت له من الدنيا حظوة يصطفيها، ومكانة يستقر فيها، فليس لي منها إلا أن أرى كيف تنقسم رتبها وتتناوب، وتتنازع نعمها وتتجاذب، وتغنم فوائدها وتتناهب؟ حتى كأني جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا، فنبذت بالعراء، ولم يثبت اسمي في جملة الأسماء، وما أقول هذا قول ساخط، ولا أيأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليل في أنة، واستغاث المتوجع إلى رنة، وخفف عن المصدور نفث، ونفس من وجد المكروب بث"(١). والحق أنه مع الشكوى يختم ذلك بالتسليم والرضا، ولكن سنراه بعد قليل وقد فاض به كيله وتمنى الموت من ساعته، وقد كثرت شكواه، فهي الأكثر في رسائله.

استهلال متشائم:

حين يدعو المرء غيره للسمر والأنس، فلا مجال للتطير أو الشكوى أو الانقباض، ومع ذلك، ففي رسالة لابن الدباغ يدعو فيها للأنس والسمر، يستهلها بالانقباض في وصف اليوم، كأنه يعلل للسمر بأنه بعد يوم دامع، يقول: "وله يستدعي إلى مجلس أنس: يومنا يومٌ تجهم محياه، ودمعت عيناه، وبرقعت شمسَه الغيوم، ونثرت صباه لؤلؤه المنظوم، وملأ الخافقين دخان دَجْنه، وطبَّق بساط الأرض هملان جفنه، فأعرضنا عنه إلى مجلس وجهه كالصباح المسفر"(٢). هذا التجهم هو الداعي للسمر، فكأن السمر للهروب من القتامة، ألا يشعرنا هذا الاستدعاء لصفات اليوم بأثر نفسي دفين عند ابن الدباغ، الذي يعجز عن التسامر والسعادة لذاتها ولَذَّاتها.

---

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٦٦-٢٦٧.

(٢) قلائد العقيان ١/٣١٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الحاجة إلى الحماية والكنف:

وهذه السمة أيضا دليل قلق وخوف ممضّ، يقول: "أوحش بأيام أقطعها وأفنيها! وأثواب عيش أُخْلِقُها وأبليها! بحيث لا أراك عيانا، ولا أملك من أنديتك مكانا، حتى أعتز بك من هونٍ أُغْضِي فيه على القذى، وأصبر منه على حزِّ المدى، وأتميز من طبقة الاتضاع والاستخذا"(١). إنه وإن كان في مقام امتداح إلا أنه بالصفات التي يقدمها في ممدوحه، والعلل التي يستدعي بها الكنف والجوار يكشف عن شخص يخشى غوائل الزمن، وأظنه كان شخصا يسعى للمثالية أو مثاليٌّ، لا يكتفي بما له من مكانة، أو يعزز قدرته على الدفاع عن نفسه بل يسعى إلا الأمان المثالي، بادئا حديثه بصيغة التعجب، وشافعا ذلك بوصف ما يهرب منه (حز المدى) و(التميز عن طبقة الاتضاع)، إنه يصور الصفات في أشد معانيها، وهو سبب قلقه ومهربه.

يأس من الدنيا، وجبر على الألم ، وفقدان القدرة عن التوقف عن الشكوى:

حين ييأس الإنسان من الحياة، ويكون مجبورا ومكرها على ارتشاف كأس الألم حتى الثمالة، فتنساب شكواه من قبضة صبره فإن ذلك يكشف عن شخص لا يرى للأمور انفراجا، يقول: "ولا إخال أن زماني يذعن بإسماح، ولا يزال مستمر الجماح، وما الحيلة إن أبى سوى التعلل بالمنى، والاستراحة بلعل وعسى، وبوُدِّي لو ملكت عن هذه الشكوى لساني، وأمسكت في البوح بها من عناني، وأخذت نفسي بأناتها، وأنظرت الأقدار إلى أوقاتها، حتى لا أسوء ولا أنكد، بما أورد منها وأردد، ولكني والله

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٥٤.

مغلوب بالاضطرار، معدول عن وجه الاختيار"[١]. فهو مجبور مكره على تذوق الألم، ليس أمامه حيلة إلا (التعلل بالمنى) لأنه يعتقد (لا إخال أن زماني يذعن بإسماح).

ويقول أيضا في يأس مؤلم، "ودونك ما لا يخفى عليك، وقد عرض الماء لعيني فكيف أرد؟ ومن أين أقصد؟ الله حسبي في سوء جدي، وأنت وليُّ عذري، في الحضور بالمكاتبة إذ لم أجد سبيلا إلى المشافهة، ولا أكذبك، ضاقت بي الأرض كلها، وانسدت علي سبلها، وضللت عن كل عزاء وتماسك، وأسلمت إلى كل يأس وتهالك، فتداركني ممزقا[٢]، ونجني غرقا، وأخطرني ببالك، واعرض حالي على اهتبالك، عسى أن يتجه للفرج وجه، أو يلوح منه فجر"[٣]. وماذا بعد ضيق الأرض على الإنسان؟ وفقد التماسك؟ إن ابن الدباغ ليمتح من بئر بؤس لا ينضب.

حرمان وعدوان وحزن وألم:

مما يثير الشكوى في نفس الإنسان الحرمان، فإن انضاف إليه حزن وألم أثار تشاؤما وتطيرا، ولم يَنِ ابن الدباغ تعبيرا عن ذلك، يقول: " لا تستغرب – أعزك الله – ما صادفت [لي] هنالك من تعذر وحرمان، كما لا استغرب ما ألاقيه عندنا من تسليط وعدوان، فالنحوس كلها مجتمعة لي في قران، ولا تعجب إلا لثبوتي لما لا يثبت عليه الحَلَقُ السرَّد، وبقائي على ما لا يبقى عليه الحجر الصلد، وبالجملة لا تسأل عن الحال فقد صار في عيني

---

(١) السابق الصفحة نفسها.

(٢) في هذا إشارة لبيت المثقب العبدي، الأصمعيات ص ١٦٦:

فإن كنتُ مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

(٣) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٥٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

معمور الكرة أضيق من خُرْتِ الإبرة، واستبهمت لي المطالب، وانسدت علي المذاهب، فما أدري أي وجه أيمم؟ ولا على أي أمر أعزم؟ ويا ليت شعري أين الفرج؟ فهذا التناهي، وقد بلغت القلوب الحناجر، ومتى التلاقي؟ نستغفر الله من هذا الضجر، ونعوذ به من السخط على القدر، ونسأله صبرا يشتد لشدائد النوب حتى تجوز وتعبر، وتوفيقا يهدي في غياهب الكرب حتى تنجلي وتسفر"(١). إن ابن الدباغ استشعر أنه يصل بالضيق واليأس والضجر والشكوى إلى منتهاها الذي لا مزيد عليه، فاستغفر ربه حتى لا يكون ذلك سخطا على قدر الله، لكنه يبرع في تصوير ما ساءه من الأيام واعتراه من الأحزان.

تمني الموت:

حين تضيق كل السبل، وينقطع حبل الأمل لا يكون أمام الإنسان العادي إلا تمني الموت، فإن كان الرجل أديبا وزيرا بليغا ذا مكانة، كان تعبيره أقوى، فهل كان يرى أنه لم يأخذ مكانته المستحقة؟ هل كان أضعف من أن يدخل في صراعات الحفاظ على المكتسبات؟ هل نفد منه أكسجين الحياةِ الأملُ حتى يتمنى الموت؟ يقول: " وهكذا جدِّي، فما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضي عمري في بوس، ولا أنفك من نحوس، ويا ليت باقيه قد انصرم، وغائب الحمام قد قدم، فعسى أن تكون بعد الممات راحة من هذا النَّصَب، وسلوة عن هذه الخطوب والكُرَب؛ ودع بنا هذا التشكي فالدهر ليس بمعتب من يجزع(٢)، ولا بمشفق على من توجع، واطرح بنا هذا القول في

(١) السابق ١/٢٥٦-٢٥٧.

(٢) اقتباس من مطلع قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي يرثي فيها أبناءه: المفضليات ص ٤٢١.
أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

الرياح، واعدل بنا عن الجد إلى المزاح"[١]. إنه يهرب إلى المزاح من واقع أليم ممض.

ومن ذلك قوله أيضا: -"ولئن كان باقي العمر كماضيه، وعوائد العيش كبواديه، فالحمام أعذب موردا، والوفاة أحسن مشهدا"[٢]. هل حقا فقد القدرة على الأمل؟

حرمان ويأس:

الحرمان يؤدي إلى اليأس، وكثرة الانتظار مع تكرر العثار مؤذن بالانكسار، يقول ابن الدباغ: "ولست أشكو إلا زماني وقعوده بجدي، وقبيح آثاره عندي، وإن كان على الكل عاديا، وللجميع بكأس مكروهه ساقيا، فيخصني بمزية حرمان، ويتوخاني بفضلة عدوان، ويجعلني نصب سعيه، وغرض رميه، ومكان أذايته وبغيه، حتى كأني أبديت له معاير، وأدرت عليه دواير، ودللت العالم على جوره في الحكم، وتطبعه في الظلم، وحسبي الله تعالى فيما أسخط وأرضى. ومع ما ذكرته فلي من الصبر جانب، وإن حميت منه جوانب، ومعي من التجمل بقية وإن سلبته السوالب." [٣]. إن الدهر له عند ابن الدباغ ثأر لا يهدأ حتى يقتص منه، وهو مع ذلك لديه بقية من تجمُّل، وإن عاد وذكر أنه سُلِبَ إياه. إن الدهر لا يرحمه ، ويبدو أنه لن يفعل مطلقا. ومما يعبر عن ذلك الترصد من الدهر له مما جعله يائسا من تغير الدهر ناحيته، قوله: "وما حالُ مَنْ كلما هم بشيء باعده الدهر منه، وطردته الليالي عنه؟ وكلما قرع باب مطلب عارضه من الحرمان رد، أو

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٥٨.
(٢) السابق ١/٢٦٥.
(٣) المصدر نفسه ١/٢٥٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ذهب به مذهب سعي قطع به من النحوس سد؟ حتى لو عرض له عند الظما شرب، لغيض وحمته من الخطوب خطب، فاليأس قاطع أسباب الطلاب، ومغلق من النجح جميع الأبواب، ولكنها النفس ما بقيت لها حشاشة فهي تشف إلى طمع، وتنهض على ظلع، وتجهد ألا تقصر إلى أن تموت فتعذر"(١).

ويستبعد ابن الدباغ انصلاح حاله، ويتساءل في حيرة عن انتهاء أحزانه، "ويا ليت شعري إلى متى، وكم أتعذب وأشقى، وهل لهذا التحير أمد؟ زماني كله نكد!" (٢).

حظٌّ عاثر:

ليس هناك ماء يسقي زرع التشاؤم أروى من الحظ العاثر، وليس هناك أكثر عثارا من أن يكون الأمر سلسلا سائغا للجميع، وحنظلا لابن الدباغ، يقول: "وقد يجوز أن يكون للمبلغين في السعاية بلاغات محرفة، واختلاقات مزخرفة، تثير بسعيها حرجا، وتهيج أنفا، فمالي حرمت منه ما هو معلوم دون ملوك العصر، من سعة الحلم وكثرة الصبر، ولم عدمت عنده ما هو موصوف به من كظم الغيظ إذا أحفظ، وذكر الرضى إذا أغضب بل كيف حتى خصصت وحدي من بين العالم، بأن يصغي في جهتي إلى النمائم؟ ولو رزقت من تأمله – أيده الله – ما أصغى إلى ذلك الناقل وما أنهاه، إذ الإفك ما حكاه، فلم يك من ذوي الأديان فيوثق في نقله، ولا من ذوي النصائح فيقبل من مثله"(٣). فلحظه العاثر أن يكون الأمير واسع الصبر إلا

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٦٤-٢٦٥.
(٢) السابق ١/٢٦٨.
(٣) المصدر نفسه ١/٢٦٩.

معه معلوم حلمُه مكظوم غيظه إلى على ابن الدباغ، أليس هذا شؤما متطايرا؟

ولم يقتصر حظه العاثر هنا فقط بل تعدى ذلك، فلم يصل إلى ما يستحقه من الذكر والمكانة مع تمكنه من آلته الأدبيه، ومع ذلك فهو يصبر لكنه صبر مع تناهي الأسى على الحظ الضائع، يقول: "والذي يغمني من ذلك ويهمني جد لا ينفك من عثار، وحال لا تزال في خمول وإخمال، وقطع عمري في كد وذلة، وجهد وقلة، وتصرف لا ترضى به آلاتي، واتضاع ترفعني عنه أدواتي، بحيث يتقدم الجهل على النبل، ويستطيل ما شاء على الفضل، وتنال الرتب بالمخارق، وتعطى الكوادن حظوظ السوابق، ولم أزل أصبر من ذلك كله على يشيب رأس الوليد، ويذيب الحديد، ويهد الرواسي هدا، ويحدث للجماد غيظا ووجدا، لئلا يقال: مضطرب يقلق، وعجول لا يتأتى ولا يرفق، حتى آلت الحال إلى هذا المآل، وبلغ الكتاب أجله في الانفصال"(١).

جفاء الإخوان والضجر:

مما يبعث على الأسى، ويملأ القلب ألما وبؤسا جفاء الإخوان، وتنكر الخلان، وهذا أمر يصيب الإنسان بالتشاؤم من انعدام الوفاء، وتوقع الفراق عن كل خل وصديق، يقول: "فلم يكن منهم إلا كل جاف جلف، لم ير في دينه المراجعة بحرف، فساء بذلك ظني، وقرعت على ما فعلته بالندم سني، وتصرف فكري في أن ذلك الرجل كان من معارف الرجس، فاتهمت أن الداخلة دخلت علي منه، ولولا ذلك لفجأك من العتب ما يرهق شمسك،

(١) السابق ١/٢٧٦-٢٧٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويصلح من روح الله يأسك، فعجل مراجعتي بجلية ما عنك من وصول الكتب أو غير ذلك، ولا تزد على ما في جوابك، فإني زاهد في قراءة كتابك، غير نشط لما يرد منك ومن سواك، ولو راجعتم عما أكتب بالضعف، عن كل سطر بألف"[(١)]. وختام هذه الرسالة يوضح ضجره وضيقه حتى بمطالعة ما يرسله له أصدقاؤه.

ومن جفاء الإخوان، وكأنهم يطلبون وترا لدى ابن الدباغ، يوضح ذلك قائلا: "وما زلت أثبت لتوالي الرمي، وأستمسك على قوة الرزء، إشفاقا من أن أكون كلًّا، وأزيد في مؤنتك ثقلا، حتى قدم الغائب وقد تملأ من المرة الصفراء، واستفرغ من خلطي البلغم والسوداء، وتلقى الساعي هراشه بالإغراء، ونار يته بالحلفاء، فاندفع يهيج ويتهوج، ويستشيط ويتأجج، ولا حلم يردع، ولا استبصار ينفع، فيا لك من مكاشفة تركت الألباب حيارى، والناس سكارى! فما أجد إلا من يثلب، ولا أمر إلا بمن يتهجم ويقطب، حتى كأني وترت الجميع، وجنيت عليهم الخطب الشنيع، ولله سمعي! ماذا يسمع؟ وقلبي كيف لا يتصدع؟ ولو نال مني ذو حرمة تعزيت، أو أخذ مني من فيه إنسانية ما باليت، ولكن المحنة بأوغاد تدق عن المجازاة مقاديرها، والبلية بذباب يحميها من أن تنال مقاذيرها.

حل هذا من قول القائل، وهو إبراهيم بن العباس في محمد بن عبد الملك الزيات:

نجا بك لؤمُك مَنْجَى الذبابِ حَمَتْهُ مَقَاذيرُه أن يُنَالَا"[(٢)][(٣)].

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٧٥.
(٢) ينظر ديوان إبراهيم الصولي ص ١٦٣ ضمن كتاب الطرائف الأدبية.
(٣) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٥٩-٢٦٠.

قلق واضطراب:

القلق والاضطراب يعكران مزاج الرجل الحكيم بل ربما حملاه على بعض التطير، فما بالنا إن انضم إلى ذلك كون الرجل ضَجِرًا يستشعر عدم الثقة بالمكان والمكانة والاستقرار بل وعدم ثقة بأميره الذي يعيش تحت ظله، كأنه يترقب تحوله عنه وتبدله عليه، يقول ابن الدباغ: "فإن كنت قد وصلت من عزته الرفيعة إلى داري؛ وحصلت منها في موضع استقراري، ونلت من تقريبه فوق قدري ومقداري، فأنا الآن بمنزلة ضيف وبودي ألا أكونه، بل كنت أشتهي أن أرى نفسي بمنزلة من ألقى العصا، وأمن روعة النوى، وخيم مستوطنا، واتخذ سكنى وسكنا، وصار من دنياه في أمل، وقلب الطرف بين خيل وخول، ولا والله ما يختلج ببالي غير ذلك كله، ولا استبطأت من طَوْلِ مولاي وفضله، ولكن ليس للمرء من عمل في قوله عز وجل {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}(١)، ولئن تسرعت وعجلت، فعلى فضل أتاه مولاي عَجَّلْت، وعليه عولت واتكلت، ولولا ثقتي بالرأي الجميل، والمعتقد الكريم النبيل، لوقفت عند قدري، وما تعديت طوري، حتى يكون هو – أيده الله – السابق إلى ما يغني عن إنشاده:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بيان عندها وخطاب(٢)

* *

ومثلك من كان الوسيط فؤاده ... فكلَّمه عني ولم أتكلم(٣)"(٤).

---

(١) من الآية (٣٧) من سورة الأنبياء.
(٢) للمتنبي في ديوانه ١/٣٢٤.
(٣) للمتنبي في ديوانه ٤/٢٧٢.
(٤) الذخيرة القسم الثالث ١/٣١٣-٣١٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وما مرَّ بنا يؤكد نزعة التشاؤم في شخصية ابن الدباغ وأدبه، رَشَحت بها كلماته، واتسمت بها شخصيته القلقة المتحولة التي لم تهنأ بقرار، أو تطمئن لخل وفيّ، أو أمير عطوف، ترقب حظها العاثر ببؤس وخوف.

بعضٌ من أمل:

على أن ابن الدباغ يتبدى لديه بعض من أمل، وأظن ذلك يأتيه حين يتحول من أمير إلى أمير، وتلوح له محاسن البدايات، ظنا منه أنه وجد المقام الذي ستطمئن نفسه فيه، ومن ذلك قوله: "ولعل الأيام تفعل ذلك فقد تحسن في بعض الأوقات الصنيع، وتشعب الشمل الصديع"(١). فهو لم يفقد الأمل في إحسان الأيام في بعض الأوقات.

وقوله: "وعلى ذلك فأنا الآن بحال من بلغ أملا، واستساغ جذلا، ورضي بعض الرضى عن دهر صار للشمل جامعا، وقد كان اليأس منه واقعا، والحمد لله على نعمة جددها، ومنة أكدها، وهذه جملة موصولة منك يفصلها"(٢). ويظهر هنا ما ذكرته سابقا، فهو الآن يشعر ببعض الطمأنينة، ولديه رجاء أن يتبدل يأسه رضى.

وقد يشعر بدفء الأمل حين يجد الكنف الحامي والكرم الهامي، وقد كان فَقْدُه كما مرَّ ما أمرَّ! يقول: "أعاذ الله عمادي من المحن والنوائب، ولا أعدمه إسداء المنن والمواهب، فقد عقد الله على الخير سريرتك، وصحح في ابتغاء الأجر بصيرتك، فما تدعى إلى حسنة إلا وأنت سابق إليها"(٣).

---

(١) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٩٦-٢٩٧.
(٢) الذخيرة القسم الثالث ١/٣٠٢.
(٣) السابق ١/٣١١.

الفن في سياق التشاؤم عند ابن الدباغ:

سقتُ فيما سبق السياقات الموضوعية التي ورد فيها سمات التشاؤم عند ابن الدباغ، والآن أفرد الحديث عن السمات الفنية في هذه النصوص، من الناحية الفنية البنائية، ومن ناحية ألفاظها.

أولا: البناء الفني: وفي البناء الفني يمكن أن نلاحظ التالي:

-بالنسبة للبواعث التي صبغت أدب ابن الدباغ، من حيث بيئته وعصره وشخصيته، فقد " جاءت رسائل ابن الدباغ ممثلة لحياته الخاصة من جهة، وللحياة الاجتماعية المضطربة في المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري من جهة ثانية"(١). وقد مرت بنا شواهد تدل على شخصية ابن الدباغ وما لاقاه ، ويمكننا الاستدلال هنا بقوله: "لا تسأل عن الحال فقد صار في عيني معمور الكرة، أضيق من خرت الإبرة، واستبهمت لي المطالب، وانسدت علي المذاهب، فما أدري أي وجه أيمم؟ ولا على أي أمر أعزم؟ ويا ليت شعري أين الفرج؟ فهذا التناهي، وقد بلغت القلوب الحناجر ومتى التلاقي؟"(٢)، وقوله: " فما أصنع وقد أبى القضاء إلا أن أقضي عمري في بوس؟ ولا أنفك من نحوس، ويا ليت باقيه قد انصرم، وغائب الحمام قد قدم، فعسى أن تكون بعد الممات راحة من هذا النصب، وسلوة عن هذه الخطوب والكرب"(٣). لقد تقلبت الحياة به منذ الجفوة التي حدثت بينه وبين المقتدر بن هود، حتى وفاته مقتولا على يد أحد عداته في مسقط رأسه.

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٣٨٢.
(٢) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٥٦-٢٥٧.
(٣) السابق ١/٢٥٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأما عن عصره فقد كان القرن الخامس في الأندلس عصر ملوك الطوائف، و"كان عصر ملوك الطوائف عصر تفكك اجتماعي وضعف سياسي، ولكنه أيضا عصر زهو حضاري ورقي ثقافي. إن أول ما يلفت نظرنا في عصر ملوك الطوائف اضطراب الحياة الاجتماعية بالفتن الداخلية بالمنازعات بين العرب والبربر وبالاقتتال بين ملوك الطوائف وبالحروب بين المسلمين والنصارى"(١). فقد كان هذا العصر قلقا، مضطربا، وقد صبغ الحياة الاجتماعية بهذه الصبغة.

-على مستوى الأفكار: لقد جاءت النصوص التي استدللت بها معبرة عن أفكار حزينة وقاتمة فيها من العثار والشكوى والألم واليأس والحرمان بل وجفاء الإخوان وتمني الموت، وقد عنونتها هكذا (شكوى الأيام وفعلها به-استهلال متشائم-الحاجة إلى الحماية والكنف-يأس من الدنيا، وجبر على الألم، وفقدان القدرة على التوقف عن الشكوى-حرمان وعدوان وحزن وألم-تمني الموت-حرمان ويأس-حظ عاثر-جفاء الإخوان والضجر-قلق واضطراب). إن هذه الأفكار دليل على ما عاناه هذا الأديب، بل إنه أحيانا ما يهرب من المواجهة، فعندما كان بإشبيلية "تشادَّ مع ابن عمار، فأشار المعتمد إلى حسم ذلك بين يديه، فأبى أبو المطرف عليه، ثم اجتمعا بعد في مجلس أنس دون رأيه، فأمر المعتمد بنفيه"(٢). ويحار المرء لم يتهرب من طاعة الأمير؟ ولم لا يحسم أمر خلافه مع ابن عمار أمام الأمير؟ هل وطَّن

(١) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ٣٩٢/٤. وينظر تاريخ الأدب العربي، الأندلس ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) الذخيرة القسم الثالث ٢٥٢/١.

نفسه على الهرب؟ وعلى الخروج من مكان إلى آخر؟ هل كان هذا العصر يصبغ ابن الدباغ بقرب أفول النجم؟

-أما المعاني والصور: فقد وصل فيها إلى منتهاها، ولعل المبالغة التي تصور معاناته، مستعينا بأفكار مصورة بادية عنده، فمثلا قوله: (وأنا كما تدريه غرض للأيام ترميه، ولكن غير شاك من آلامها؛ لأن قلبي في أغشية من سهامها، فالنصل على مثله يقع، والتألم بهذه الحال له قد ارتفع)، وهو هنا لا يكتفي بتصوير كونه غرضا للأيام، وهذا وصف حسي معبِّر بل يستدعي وصفا من بيت للمتنبي، حيث إن سهام الدهر التي غطت قلبه فلم يعد يحس بما يصاب به، وهذا وصف بديع للمعنى وتصوير رائع. ويقول: (يومنا يوم تجهم محياه، ودمعت عيناه، وبرقعت شمسه الغيوم، ونثرت صباه لؤلؤه المنظوم، وملأ الخافقين دخان دجنه، وطبَّق بساط الأرض همالان جفنه، فأعرضنا عنه إلى مجلس وجهه كالصباح المسفر) إنها معانٍ جميلة وصورة بديعة، وقدرة على تصوير المعنى بصورة رائعة، بداية من تشخيص اليوم المتجهم، وتدعيم ذلك بدموع عينه، ثم تستر اليوم بالغيوم، إلى آخر الصورة التي رسمها الشاعر ليوم شاتٍ غائم منقبض. وربما لا يستخدم الصورة في رسم المعنى، بل يكتفي بكلماته الرقيقة المعبرة، فيقول في سهولة لا تكلف فيها، ووضوح كاشف لما يدور في خلده: (ولا إخال أن زماني يذعن بإسماح، ولا يزال مستمر الجماح، وما الحيلة إن أبى سوى التعلل بالمنى، والاستراحة بلعل وعسى، وبوُدِّي لو ملكت عن هذه الشكوى لساني، وأمسكت في البوح بها من عناني، وأخذت نفسي بأناتها، وأنظرت الأقدار إلى أوقاتها، حتى لا أسوء ولا أنكد، بما أورد منها وأردد، ولكني والله مغلوب بالاضطرار، معدول عن وجه الاختيار) إنها كلمات مباشرة،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

سلسة كأنها أنَّة انسابت لما امتلأ كأسها بلا عوامل إضافية، وربما تبيان أنه مضطر في إظهار شكايته أبان أنه لم يتكلف نزعها من جنانه، ولا صاغها حبكا من معدن بيانه، بل فاضت بها نفسه، وجرى بها قلمه، وهو في كل حال يبدع في كشف المعاني الجميلة وتنويعها، مستعينا بأدوات بلاغية وصور بيانية وثروة لغوية وتعبيرات وجمل وأساليب متنوعة تتضح بقراءة نصوصه، وتعطي القارئ متعة الأدب الساحرة.

-على مستوى بداية الرسالة وخاتمتها فقد استدللت بقطع من الرسائل إلا أنه غالبا لم يكن يهتم ببداية الرسالة، فقد يهجم على فكرته مباشرة، أو يفتتحها بدعاء، أو بقوله: (كتابي)، وكذا خواتيمه، فقد كان يتوقف عندما يكتفي من كلماته فحسب، وأحيانا بدعاء للمرسل إليه، وهذا من سمات الأدب الأندلسي في هذا العصر(١).

-وعن الاقتباس: فابن الدباغ ينثر الأشعار، ويرصع بالاقتباس من الشعر، وقد مرَّ بنا نثره لبيت للمتنبي، وآخر للمثقب العبدي، ويقتبس من مطلع قصدية لأبي ذؤيب، واستشهاده ببيتين من أبيات المتنبي، كما استشهد بالقرآن، وهذا في النصوص التي استشهدت بها فقط، وإلا فإن هذه السمات ظاهره في عموم رسائله(٢).

-استعمال المحسنات البديعية: "لقد أخذ ابن الدباغ بالكتابة المتأنقة، وأكثر من استعمال المحسنات البديعية والمعنوية، ومن أبرز المحسنات البديعية التي اهتم بها السجع القائم على تنويع الفواصل، وقصر

(١) ينظر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٣٩٩.
(٢) ينظر السابق ص ٣١٥.

العبارات"[١]. أما المحسنات المعنوية فمنها الاقتباس والتضمين، وقد مرَّ، ومن المحسنات اللفظية الطباق نحو (الشدة، لانَ – برقعت، المسفر– المكاتبة، المشافهة– بقائي، لا يبقى– غائب، قَدِمَ–باقي، ماضي–أسخط، أرضى) ، والجناس نحو (أنَّة، رنَّة–ذهب، مذهب–خيل، خول)، وأما السجع والازدواج فإن قراءة أي نص مما سبق يشهد باستخدامه لهذين اللونين، وقد اعتمد كثيرا على الجمل القصيرة المسجوعة، ومن أمثلة ذلك قوله: (ولا أكذبك، ضاقت بي الأرض كلها، وانسدت علي سبلها، وضللت عن كل عزاء وتماسك، وأسلمت إلى كل يأس وتهالك، فتداركني ممزقا، ونجني غرقا، وأخطرني ببالك، واعرض حالي على اهتبالك)، وقوله: (ولست أشكو إلا زماني وقعوده بجدي، وقبيح آثاره عندي، وإن كان على الكل عاديا، وللجميع بكأس مكروهه ساقيا، فيخصني بمزية حرمان، ويتوخاني بفضلة عدوان، ويجعلني نصب سعيه، وغرض رميه، ومكان أذايته وبغيه، حتى كأني أبديت له معاير، وأدرت عليه دوايرَ، ودللت العالم على جوره في الحكم، وتطبعه في الظلم). والملاحظ أنه يستعمل الجمل القصيرة والمتوسطة، وقلما يلجأ إلى الجمل الطويلة.

–الجمل الاعتراضية والدعائية: فمن الأولى: (لا تستغرب – أعزك الله – ما صادفت [لي] هنالك من تعذر)، (ولو رزقت من تأمله – أيده الله – ما أصغى إلى ذلك الناقل وما أنهاه)، (حتى يكون هو – أيده الله – السابق إلى ما يغني عن إنشاده). ومن الثانية: (أعزك الله)، (أيده الله).

(١) ينظر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٤٠١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

-استعمال أساليب لغوية متنوعة: استفهام حقيقي أو غير حقيقي نحو: (فكيف أرد؟)، (ومن أين أقصد؟)، (أين الفرج؟ فهذا التناهي)، (ومتى التلاقي؟)، (فما أصنع وقد أبى القضاء إلا أن أقضي عمري في بوس؟)، (إلى متى، وكم أتعذب وأشقى؟ وهل لهذا التحير أمد؟) (ولم عدمت عنده ما هو موصوف به من كظم الغيظ إذا أحفظ؟)، (كيف حتى خصصت وحدي من بين العالم، بأن يصغي في جهتي إلى النمائم؟)، (والله سمعي! ماذا يسمع؟ وقلبي كيف لا يتصدع؟). تعجب نحو: (أوحش بأيام أقطعها وأفنيها! وأثواب عيش أُخْلِقُها وأبليها!)، (ويا ليت شعري)، (فمالي حرمت منه ما هو معلوم دون ملوك العصر)، (والله سمعي). وتفضيل نحو (فالحمام أعذب موردا، والوفاة أحسن مشهدا). وقسم نحو: (والله ما يختلج ببالي غير ذلك كله). كما ذكر مصطلحات نحوية نحو قوله: (وما الحيلة إن أبى سوى التعلل بالمنى، والاستراحة بلعل وعسى).

ثانيا: أما من ناحية الألفاظ، ولغة الرسائل:

اتسمت لغة رسائل ابن الدباغ، والنصوص التي استشهدت بها عموما بالسهولة، فإن القارئ العادي المتذوق للأدب قد لايجد صعوبة في فهم أكثر الألفاظ معجميا، والقليل منها قد يحتاج إلى مراجعة معناه اللغوي، ويسر الألفاظ وعذوبتها مما يساهم في انتشار الأدب ويكشف قوة الأديب في توظيف الألفاظ، كما أنه يقرب المعاني، ويوصل المراد.

- أما عن الموسيقى: فإن "النثر الأدبي العربي يستطيع أن يتحلى بأغنى أنواع الإيقاع وأعذب الأنغام الموسيقية من خلال الطرائق الصوتية

المناسبة لطبيعته، والتي هي بشكل خاص: السجع والازدواج"[١]. واتفاق الفواصل في الفقرات في حرفها الأخير، إضافة لما يمكن أن تتفق فيه من أوزان أو تتقارب، أو ربما تتفق أوخر الفواصل في أكثر من حرف مما يعطي جرسا ونغما للجمل والفقرات، فإذا انضاف إلى ذلك حسن توظيف من الأديب مع تعبير عن المعنى المراد كان ذلك دليلا على تمكن الأديب من أدواته، ومن ذلك قول ابن الدباغ: "وما حال من كلما هم بشيء باعده الدهر منه، وطردته الليالي عنه، وكلما قرع باب مطلب عارضه من الحرمان رد، أو ذهب به مذهب سعي قطع به من النحوس سد، حتى لو عرض له عند الظما شرب، لغيض وحمته من الخطوب خطب، فاليأس قاطع أسباب الطلاب، ومغلق من النجح جميع الأبواب، ولكنها النفس ما بقيت لها حشاشة فهي تشف إلى طمع، وتنهض على ظلع، وتجهد ألا تقصر إلى أن تموت فتعذر"[٢]. وقوله: -" ما أظن أن لدجى حالي انبلاجا، ولا لكربة نفسي انفراجا، ولا إخال غمرات الهم تنجلي، ولا مدد النحوس تنقضي. ومن كانت له من الدنيا حظوة يصطفيها، ومكانه يستقر فيها، فليس لي منها إلا أن أرى كيف تنقسم رتبها وتتناوب، وتتنازع نعمها وتتجاذب، وتغنم فوائدها وتتناهب، حتى كأني جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا، فنبذت بالعراء، ولم يثبت اسمي في جملة الأسماء، وما أقول هذا قول ساخط، ولا أيأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليل في أنة، واستغاث المتوجع إلى رنة، وخفف عن المصدور نفث، ونفس من وجد المكروب بث"[٣].

---

(١) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله ٢/٦٥٤.
(٢) الذخيرة القسم الثالث ١/٢٦٤-٢٦٥.
(٣) السابق ١/٢٦٦-٢٦٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

– وإجمالا "فإن الباحث يستطيع أن القول من خلال رسائل ابن الدباغ التي انتهت إلينا بأنه قد جارى أترابه كتَّاب الأندلس في الأخذ بالمثل الأعلى السائد، والسير على مقاييس العصر الفنية من حيث البناء الفني للرسالة، واختيار الألفاظ والتعبير عن المعاني"(١).

لقد امتلك ابن الدباغ أدواته الفنية التي أهلته ليكون معدودًا من أدباء الأدب الأندلسي في عصره، وأجاد التعبير عما يجيش في نفسه المضطربة وحياته المتنقلة، وأعطى صورة لعصره القلق الذي اضطره للترحال خوفا وطلبا للاستقرار الذي لم يحصل عليه ولم يخف عناؤه إلا بعد أن وَجَأَه أحد أعدائه بسكين الراحة الأبدية.

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٣٩٨.

خاتمة

بعدما عشنا مع بحث التشاؤم في رسائل ابن الدباغ، محاولين تناول الموضوع من زواياه المختلفة، من جهة التعريف بشخصية الشاعر، وفنه الأدبي، ومراحل حياته، مع النظر في نصوص رسائله، واكتشاف تجليات التشاؤم فيها أستطيع أن أستنتج ما يلي:

- ابن الدباغ كانت حياته مضطربة غير مستقرة، مما ترك أثرا على أدبه وشخصيته.
- العصر الذي عاش فيه ابن الدباغ في الأندلس عصر تقلبات سياسية واجتماعية، وطبيعي أن يؤثر في الأدب والأدباء.
- التزم ابن الدباغ بالسمات الفنية للنثر في عصره لاسيما فن الرسائل.
- تجلى التشاؤم عند ابن الدباغ من جهة الأفكار التي عبر عنها في رسائله التي كثر فيها الشكوى، وقد عنونت هذه الأفكار بما يكشف عن محتواها، ومن ذلك (حظ عاثر، والشكوى، والحرمان، وتمني الموت الخ) ومثل هذه الأفكار وما تحتها من نصوص كاشفة عن التشاؤم في رسائل ابن الدباغ.
- أجاد ابن الدباغ التعبير عن المعاني المتنوعة، وتصويرها بصور مختلفة، كما استخدم أساليب متعددة منها: الاستفهام، والتعجب، والتفضيل، والقسم.
- احتوت رسائل ابن الدباغ على التنغيم الموسيقي معتمدا السجع والمزاوجة، وكان لابتعاده عن الغريب من الألفاظ، وسهولة وعذوبة ألفاظه، وإجادته في توظيفها أثرا بعيدا في القيمة الفنية والمتعة الأدبية لرسائله عموما، وسياق التشاؤم خصوصا.

وبالجملة فإن ابن الدباغ استعمل القيم الجمالية النثرية في عصره، وظهر بواعث التشاؤم والقلق والاضطراب في رسائله، ومقدرته التعبيرية عن المعاني وقدرته في تشكيل الصور والألفاظ.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المصادر

١- فايز عبد النبي فلاح القيسي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، ط أولى.
٢- الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، بيروت، ط الخامسة، بدون.
٣- أحمد ضيف، (١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) بلاغة العرب في الأندلس، مطبعة مصر، ط أولى.
٤- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرين وزارة الإرشاد – الكويت.
٥- عمر فروخ، (١٩٨٤م)، تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع، ط الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.
٦- د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، ط دار المعارف، بدون.
٧- د. ماهر شعبان عبد الباري، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، التذوق الأدبي، طبيعته، نظرياته، مقوماته، معاييره، قياسه، ط أولى، دار الفكر، عمان.
٨- د. بدر محمد الأنصاري، (١٩٩٨م)، التفاؤل والتشاؤم، المفهوم، والقياس، والمتعلقات، ط أولى جامعة الكويت.
٩- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق آذرتاش آذرنوش، ج ٣، ط الدر التونسية، ١٩٨٦م.
١٠- د. إحسان عباس، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، تحقيق القسم الثالث، ط دار الثقافة، بيروت.
١١- عبد الرحمن البرقوقي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، شرح ديوان المتنبي، ط دار الكتاب العربي، بيروت،.
١٢- صبح الأعشى للقلقشندي، (١٣٣٤هـ/١٩١٦م)، ط المطبعة الأميرية بالقاهرة.

١٣- عبد العزيز الميمني، (١٩٣٧م)، الطرائف الأدبية، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٤- د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط العاشرة، دار المعارف، بدون.
١٥- ابن خاقان، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق د. حسين يوسف خريوش، ط أولى، مكتبة المنار، الأردن.
١٦- لسان العرب لابن منظور ط دار صادر بدون.
١٧- د. أحمد مختار عمر، وآخرون، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط أولى، عالم الكتب، القاهرة.
١٨- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، المعجم الوسيط، ط الرابعة، مكتبة الشروق الدولية.
١٩- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، ط الرابعة، دار المعارف، بدون.
٢٠- المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط السادسة، دار المعارف.
٢١- د. معن زيادة، (١٩٨٦م)، الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير ط أولى، معهد الإنماء العربي، .
٢٢- موسوعة لالاند الفلسفية، ط الثانية منشورات عويدات، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٣- علي بن محمد، (١٩٩٠م)، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه، وأشكاله، ط أولى، دار المغرب الإسلامي، بيروت.
٢٤- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م)، ط أولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص	٤١٢٧
٢.	Abstract	٤١٢٨
٣.	المقدمة	٤١٢٩
٤.	المبحث الأول : التشاؤم وشخصية ابن الدباغ	٤١٣١
٥.	المبحث الثاني : تجليات التشاؤم في رسائل ابن الدباغ:	٤١٣٤
٦.	التشاؤم في رسائل ابن الدباغ من خلال الموضوعات المطروقة:	٤١٤٠
٧.	خاتمة	٤١٥٠
٨.	المصادر	٤١٦٠
٩.	فهرس الموضوعات	٤١٦٢

تم بحمد الله